

أسامة بن منقذ ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ومؤلفاته

■ بقلم الاستاذ الدكتور سامي الصفار

آل منقذ وقلمه شيزر:

لعل من الحقائق التي سجلها التاريخ الاسلامي عن آل منقذ، هي القول بأنها أسرة مجيدة، نشأ فيها رجال كبار من الفوارس والشجعان والشعراء والأدباء، وكانوا يعتبرون ملوكاً لأراضٍ قرب قلعة شيزر، عند جسر منسوب اليهم، وكانوا يترددون على حماة وحلب، ولهم فيهما دور مشيدة وأمالك، وكان ملوك الشام يكرمونهم ويقصدهم الشعراء فيمدحونهم، ويحصلون على جوائز ثمينة منهم.

بمقد اتفاق أمان بين الطرفين، وبقي الحصن في أيديهم حتى تخرب بالزلازل الذي وقع سنة (٥٥٢هـ)، وأسفر عن مقتل كل من كان فيه من بني منقذ وغيرهم. هذا وقد كان رأس الأسرة، مقلد بن نصر بن منقذ الذي يُلقب «مخلص الدولة»

وكان حصن «شيزر» لهم يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس ملك حلب، منذ سنة (٤١٧هـ) ولكن ما لبث أن خرج من أيديهم بعد مقتل هذا الملك، ثم احتله الروم البيزنطيون، غير أن الملك علي بن مقلد جد أسامة استرده منهم في سنة (٤٧٤هـ)

بكرمونهم ويجلونهم، وكانت عاصمتهم في أول الأمر في الموقع المسمى «جسر بني منقذ» ثم نقلوها إلى قلعة شيزر.

والمعروف أن هذه القلعة كانت للأمير سيف الدين عثمان بن الداية، الذي قاتل الصليبيين وقتل من مقدمتهم العشرات، وأسر البعض الآخر، والذي يهمننا أن حكم القلعة كان إلى بني منقذ - كما أسلفنا - ومنهم أبو أسامة ثم أخوه.

ولكن ما يهمننا هو أسامة وشقيقه علي، الذي سمع الحديث ببغداد وكتبه وكان شاعراً، وقد استشهد على أبواب غزة، وهو يقاتل الصليبيين، وذلك في رمضان سنة (٥٥٥هـ)، انظر «المنازل والديار ج ١/٥٢، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ج ٥/٢٢٠».

ويبدو أن الأسيرة دأبت على تدريس ابنائها مختلف العلوم الشرعية والأدبية، حتى أن والد أسامة لم يهمله تولي الحكم، بل كان من المتقين المجاهدين الذين حاربوا الصليبيين، وكتاب «المنازل والديار» الذي ألفه أسامة مخصص لذكر الديار وأحكامها الشرعية، نقلاً عن القاضي الماوردي، وعن ما صح لدى الإمام البخاري من حديث.

حسبما ذكر ابن خلكان، وقد توفي في حلب سنة (٤٥٠هـ) وكان ادبياً وشاعراً، وورثه ابنه «علي» الذي كان شجاعاً، وعند وفاته في سنة (٤٧٥هـ) حل محله ابنه «مرشد» وهو والد أسامة، وكان فارساً شجاعاً تقياً، حتى أنه كتب القرآن الكريم بيده أكثر من (٤٠) مرة، وكان همه هو الجهاد ضد الأفرنج، وشارك في وقائع حربية كثيرة أصيب خلالها بجراح خطيرة.

وعند وفاته سنة (٥٢١هـ) انتقل الحكم إلى أخيه سلطان، ولكن ما لبث أن دب الخلاف بين أبناء العائلة، وتعرض أبناء مرشد لكثير من الأذى، مما حملهم على مغادرة الحصن، وكان ذلك لحسن حظهم، لأنهم سلموا من الزلزال الذي وقع بالحصن سنة (٥٥٢هـ) وتسبب في استئصال العائلة الحاكمة، كما قضى على سكان الحصن، وقد كانت «شيزر» مطعماً للمحاربين، فالعرب كانوا يريدونها حصناً لهم، والاسماعيليون يطمحون في استعادتها، والصليبيون يرونها بوابة لدخول دمشق.

وخلاصة القول: أن أسامة ينتمي إلى أسرة عربية عريقة ذات شأن كبير، إذ نشأ رجالها على الشجاعة والفروسية وقول الشعر والأدب، وكان ملوك الشام

♦ أسامة ونشاطاته:

أسامة وغيره من أبناء أسرته، كانوا يحصلون على معرفة العلوم السائدة في زمانهم، وخاصة العلوم الشرعية والآداب، مما هو مشاهد في مصنفات أسامة الذي سلمت من الضياع، بما في ذلك قول الشعر، والمعروف انه كان شاعراً موهوباً، وكان يحفظ أكثر من (٢٠) ألف بيت من أشعار غيره، مما جعله كفوّاً ليتسلم عرش الشعر، حتى أن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، كان مشغولاً بديوان شعره، فيحمله معه في حله وترحاله، وقد نظم أسامة قصيدة عصماء، يوم نزلت بقلعة شيزر فاجعة الزلزال، ييبث فيها أحزانه وآلامه، نذكر منها:

انظر منازل آل منقذ إنها

عظة اللبيب وعبرة للناظر

كانوا بها في نعمة محروسة

بمكارم وذوايل وبواتر

ما رامها ملك ولا ذو قدرة

الا انشئ عنها بقلب طائر

متلهفا ما استطاعها ومن الذي

يلج العرين على الهزبر الخادر

فأصابها قدر فأهلك سكانها

وأعاد شامخها كرسماً دائر
والمعروف انه خرج من شيزر سنة (٥٣٢هـ) وتوجه الى الموصل التي يحكمها آنذاك «علاوة على العمادية وإقليم الجزيرة» عماد الدين زنكي، فوضع أسامة نفسه تحت قيادته في معاركه الجهادية ضد الروم البيزنطيين والصليبيين في الجزيرة وأرمينيا وحلب، واستمر على ذلك حتى هجم الروم على شيزر، وعندها نذر نفسه لتحريرها، وقد تم ذلك، وعندها تحول الى دمشق وفيها له صديقان «حاكمها شهاب الدين بن بوري، ووزيره معين الدين أنر»، حيث قاتل معهما الصليبيين، وتميز بصدق القتال، وأقام في دمشق ثماني سنوات «راجع كتاب جمال الدين الألوسي، ص ٣٠-٣٢».

وسار بعدها الى مصر سنة (٥٣٩هـ)، وقد تلقى التكريم من الخليفة الفاطمي «الحافظ لدين الله»، الذي خلع عليه من المال والثياب وحسن السكن ما لا مزيد عليه، وفي عهد ابنه الظاهر كلف وزيره «ابن السلار أسامة» بمهمة سياسية، اذ كلفه بنقل رسالة منه الى الملك نور الدين ابن زنكي، ثم عاد الى مصر ومكث فيها

لا تقربن باب سلطان وإن ملأت

هباته غير مأمون بها الطرقا

فإن أبوابه كالبحر راكبه

مروع القلب يخشى دهره الفرقا

وقضى في «كيفا» أحد عشر عاماً،

دعاه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

للاضمام إليه في دمشق، حيث ضمها إلى

دولته، وكان حفيماً به، وأحسن استقباله،

وأكرمه، وأقطعته أرضاً في «المعرة» تؤمن له

مورداً مالياً للاتفاق على احتياجاته، مما

أتاح له إكمال مؤلفاته ونظم الشعر، كما

كان يستشير صلاح الدين في شؤون

السياسة والقتال حتى وفاته وقد بلغ

التسعين رحمه الله، وتوفي بدمشق في

شهر رمضان سنة (٥٨٤هـ)، وكان صلاح

الدين من المعجبين بنظمه، ولذلك حرص

على اصطحاب ديوان شعره في الحل

والترحال كما أسلفنا.

وخلاصة القول: إن أسامة نشأ في

أسرة من أشهر الأسر العربية المحافظة

على التقاليد الموروثة، ولا سيما في

الفروسية ودراسة العلم والأدب، وبعد

ولادته بسنتين شهد العالم الإسلامي

الاعصار الأوروبي المدمر، ومنهم أهل

إلى سنة (٥٤٩هـ)، حيث كان يستشار في

أمور السياسة والحرب، وفي هذا السياق

قاتل أسامة الصليبيين في مصر قرب

مدينة «المويلح» ومعه أحد إخوانه، وقد

أسر هناك.

وفي هذا السياق أيضاً قام الجيش

المصري بالغارة على غزة وعسقلان اللتين

يحتلها الصليبيون، ولكن الظروف

السياسية في مصر وتطوراتها، حملت

أسامة على مغادرتها إلى دمشق، حيث كان

الملك العادل نور الدين محمود بطل الجهاد

الإسلامي، مما أتاح له المشاركة في قتال

الأعداء.

وبعد أن تقدم به السن وصار عاجزاً

عن مواصلة القتال، تحول أسامة إلى

حصن «كيفا» الفنية بمكتباتها، حيث انكب

على تحرير مؤلفاته، التي سجل منها

المؤرخون ما لا يقل عن (٢٧) كتاباً في

مختلف المواضيع، مما سنتأوله في فقرة

خاصة إن شاء الله.

وفي الحقيقة: إنه عندما تخطى

السبعين عاماً، عمد إلى الاعتماد عن

أصحاب السلطة، لأن القرب منهم غير

مأمون، خاصة بالنسبة لما شهده في مصر،

وعبر عن ذلك بأبيات شعر منها:

عشرة، واستمر يمارسه حتى تجاوز الثمانين عاماً، مما فاز بالاعجاب من الأهل والأغراب على السواء، وخاصة من جانب الصليبيين الذي تمكن من إيقاف زحفهم، ومن التوغل في سوريا الوسطى، لا سيما عندما تملك عماد الدين زنكي الحكم في الشام، وصار أسامة ساعده الأيمن، وطار سيطه في مقاتلة البيزنطيين الذين هاجموا شيزر وكفر طاب وانطاكية، كما انه تمكن من وقف الزحف الصليبي في مختلف الجبهات، ومن حسن التفاوض انه قرّرت عينه قبل وفاته بسنة واحدة برؤيته تحرير القدس وأغلب مدن فلسطين، على يد صديقه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، الذي تصدى للصليبيين، حتى أعجب به قادتهم.

وهكذا كانت حياة أسامة تمثل جهاد المسلمين في مواجهة الصليبيين، اذ سار منذ البداية تحت لواء عماد الدين زنكي حينما بدأ المسلمون يضمون الصفوف لمواجهة الخطر الصليبي، ثم شارك نور الدين محمود، حينما هب لمواصلة النصر الاسلامي.

فحياة أسامة تتمثل في الحياة التي خطاها العالم الاسلامي في جمع الشمل

شيزر، الذين تعرضوا لحصار خانق، مما عمق فيهم روح الجهاد ومواجهة الأعداء، خاصة الذين تأهبوا لكل طارق.

لكن هذا الجو المتوتر لم يحل دون اهلها، واسامة منهم، في طلب العلم والأدب، اذ استقدموا العلماء الى القلعة، مما اتاح لأسامة سماع الحديث النبوي من الشيخ علي بن سامل السنبسي، والأدب على الشيخ محمد بن يوسف بن المنيرة، وقرأ النحو على الشيخ ابي عبد الله الطيطي الذي كان يلقب «بسيبويه زمانه» كما تلقى تفسير القرآن الكريم وعلوم البلاغة على البارزين فيها من اهل زمانه، ولا سيما بالنسبة للشعر، قديمه وحديثه، والحق ان اسامة كان واسع الثقافة، وتشهد على ذلك مؤلفاته التي سنخصصها بفقرة مستقلة ان شاء الله تعالى.

◆ أسامة المجاهد:

لقد حرص اسامة على الجهاد كحرصه على الثقافة العالية الغنية، وقد تجلّى هذا الحرص في سعيه في تأمين الأمن والدفاع عن الحوزة في وجه المعتدين الذين نذروا انفسهم للعدوان على الاسلام واهله.

فلقد بدأ الجهاد وهو في سن الخامسة

جبهة موحدة ضد المعتدين، فأصبح رمزاً للجهاد -كما قال الألوسي، ص ٢٩-٣١- وقد شاركه في هذه المهمة اسامة، كما شاركه في المعارك ضد الروم في اقليم الجزيرة وارمينيا وحلب، وكان اسامة فيما عدا ذلك، يشغل فراغه بزيارة العلماء والأدباء الذين يعيشون في «الرها وميافارقين وديار بكر وكيفا ونصيبين وارمينيا»، وفيما عدا ذلك كان همه الاول هو توحيد الكلمة بين الحكام المسلمين لضرب الافرنج، وكان يستكر التحيزات المذهبية كما سنرى في موضعه ان شاء الله.

وقد اجمل اسامة نشاطاته الحربية بقوله في آخر ايامه: «فكم لقيت الاهوال، وتقحمت المخاوف والاختطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الاسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح وجُرحت بالسهام والجروح» (الاعتبار ص ١٦٣)، ويقول المؤرخ «فيليب حتي» في مقدمة كتاب الاعتبار: «ليس المقصود منه «اي قول اسامة المتقدم» التأثير الخطابي فحسب، بل تبيان الحقائق، وتبين شخصية مستسلمة تستقبل الافراح كما تستقبل الفشل بروح الصبر والتسليم، والنصر

وتوحيد الصفوف في مواجهة العدوان الصليبي، ولم يكن اسامة فارساً مجاهداً فحسب، ولكنه كان ايضاً سياسياً بارعاً، اذ هو الفارس السياسي والشاعر والأديب، وهو ابن أسرة كريمة تتمتع بفاية الاحترام كما وصفها العماد الاصفهاني في خريدة القصر، اذ قال عن ابنائها: بأنهم اهل بيت المجد والحسب، والفضل والأدب والحماسة والسماحة، والحصافة والفصاحة، والفروسية والفراسة، والامارة والرياسة.. الخ.

في الحقيقة ان شيزر في عهد بني منقذ، قد قامت بدور كبير في مقاومة الروم والصليبيين، ومن ذلك ما حصل عندما اعتزم صاحب انطاكية سنة (٥٠٥هـ) غزو شيزر، والحصون القريبة منها، وفزع فريق من الحكام المسلمين الى دعم بني منقذ، الذين كان لهم دور اساسي في هزيمة المعتدين، وقد سارع الصليبيون الى الهجوم على شيزر انتقاماً لتلك الهزيمة، ولكنهم انهزموا ايضاً (انظر كتاب الألوسي ص ٢١-٢٤ و ٢٥).

وكان في جبهة القتال ضد الصليبيين، صاحب الموصل عماد الدين زنكي، الذي كان هدفه توحيد القوات الاسلامية، وخلق

والهزيمة (الاعتبار ص ١٤٧ و ١٦٢).

♦ مؤلفات اسامة:

رغم انشغاله في نشاطات متعددة ومنها مقاومة الاعداء، سواء أكان من الروم البيزنطيين، أم من الصليبيين الاوروبيين، فإنه صنف العديد من الكتب ما يؤلف مجموعها آلاف الصفحات، وسأحاول ادراج ما تمكنت من رؤيته وقراءته، وما حصلت على اسمه فقط، ويكفيتنا منها المؤلفات التي سلمت من الضياع، لمعرفة غناه الثقافي، وطول باعه في النشاطات العسكرية السياسية، علاوة على تبحره في كل نشاط باشره، الأمر الذي تدل عليه مؤلفاته، التي سلمت من الضياع لإدراك غناه الثقافي وطول باعه في النشاطات السياسية والعسكرية، علاوة على تبحره في كل نشاط طرّقه، مما تدل عليه مؤلفاته التي سلمت من الضياع، ومنها:

١- كتاب الاعتبار: وهو أهم مصدر يكشف عن سيرته، كما أنه أوثق ما صنف في تصوير حالة العالم الإسلامي في زمانه، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات كالفرنسية والألمانية والانجليزية والروسية، ونشره الأستاذ فيليب حتي،

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة «برنستون» بأمريكا وذلك سنة ١٩٣٠، وهو يقع في (٢٢٧ ص) وهو أشبه بكتب المذكرات التي يُروى فيها تفاصيل الأحداث، وخير مثال عنها ما أورده المؤلف (ص ٢-٣) تحت عنوان «الروم والافرنج يحاصرون شيزر» سنة ٥٣٢ هـ، ويشير إلى اتفاق الملك البيزنطي مع الصليبيين الذين يسميهم الافرنج وما اتخذ لاحباط تلك المؤامرة، والكتاب كله في هذا السياق.

٢- كتاب العصا: الذي تناول العصا، ابتداء من عصا سيدنا موسى عليه السلام، وحرص على رواية الآيات القرآنية التي نزلت بشأنها، كما حرص على جمع ما نُظم من أشعار بحق العصا، بما فيها ما نظمته هو، وقد نشر الكتاب في سنة ١٩٨١، بتحقيق السيد حسن عباس مدرس الادب العربي بجامعة أسيوط، وهو يقع في (٤٦٢) صفحة، وقد لخصه السيد جمال الدين الألوسي في كتابه المسمى «اسامة بن منقذ، بطل الحروب الصليبية»، ص ٢٢٧-٢٤٥، هذا وقد سبق ونشره المستشرق الفرنسي «دربورغ» في باريس سنة ١٨٩٣، وقد نهج اسامة فيه بمرض نصوص شعرية تتعلق بالعصا، وهي من

النوادر، وختم الكتاب بقوله:

ولي عصا في طريق السير احمدها

بها اقدم في تأخيرها قدمي

كانها وهي في كفي أهش بها

على ثمانين عاماً لا على غنمي

كأنني قوس رام وهي لي وتر

ارمي عليها رماء الشيب والهزم

٣- كتاب المنازل والديار: وهو بجزئين

مجموع صفحتاهما (ما عدا الهوامش

والفهارس والتعليقات) ٧٠٢ صفحة، تولى

نشره المكتب الاسلامي للنشر، برئاسة

السيد محمد زهير الشاويش، في بيروت

سنة ١٩٦٥، ويبدو ان السيد الشاويش هو

الذي تولى كتابة الهوامش، ويعتبر السيد

الألوسي هذا الكتاب من اول مؤلفات

اسامة، وقد قام بتأليفه عقب زيارته لقلعة

شيزر، إثر تعرضها للزلزال سنة (٥٥٢هـ).

اما موضوع الكتاب فهو البكاء على

المنازل ورناء الاطلال التي صار اليها

وطنه، وكان هدفه ان يتفلسف على نفسه

المكروية بتدوين ما نظمه من شعر وما كتبه

من نثر في هذا الصدد، وكذلك ما نظمه

غيره من الشعراء بهذا المعنى، وما كتبه

غيره نثراً.

وقسمته الى فصول حسب العناوين التي

اختارها، مثل: ذكر المنازل وذكر الديار،

وذكر المغاني وذكر الاطلال والآثار، وذكر

الأهل والإخوان، وما الى ذلك من معان في

تفريغ الكرب والتأسي والتعزية والتسلي،

وبذلك حفظ لنا الكثير من شعره، وأشعار

غيره من الشعراء في المعاني التي

استهدفها.

٤- ديوان أشعاره (١): لقد سبقت

الإشارة الى ان اسامة كان يحفظ اكثر من

(٢٠) ألف بيت شعر من الشعر الجاهلي،

علاوة على أشعار العصور الأخرى، وعلاوة

على ما نظمه هو ودونه في ديوانه، مما

اعجب به العماد الاصفهاني وابن عساكر

وابو شامة وياقوت الحموي والذهبي.

وكان صلاح الدين الايوبي رحمه الله

تعالى، من المعجبين بالديوان، وكان يصحبه

في حله وترحاله حتى في جبهات القتال،

وشعره يتناول مختلف الاهداف، واكثرها

تتناول قسوة الظروف التي يمر بها

الانسان، ومن ذلك قوله:

نافقت دهري فوجهي ضاحك جدل

طلق وقلبي مكمد باك

وراحة القلب في الشكوى ولذتها

لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي

٥- كتاب لباب الآداب:

وقد حققه الاستاذ احمد محمد شاكر، ونشر سنة ١٩٣٥، واعاد نشره قاسم الرجب في العراق، وهو في الاصل كتاب اهداه اسامة الى ابنه مرهف، احد القادة العسكريين المرافقين لصلاح الدين الايوبي رحمه الله، وهو كتاب مادته الأدب والأخبار، ويبدأ بآيات من القرآن الكريم، ثم يتلوها بالأحاديث النبوية، ثم بمختارات من الحكم والشعر، والكتاب مقسم الى فصول تتطوي على مقدمة بآيات من الذكر الحكيم ويختمها بأقوال الأنبياء وغيرهم مما تتسم بالبلاغة والحكمة، ومن ذلك اقوال سليمان الحكيم، وافلاطون وغيرهما، علاوة على شعره هو، ومن ذلك قوله:

لا تحقرن من الضعيف عداوة

فالنار يحرق جمرها وشرارها

واحذر مداجاة العدو وكيدة

ان العداوة ليس تخبو نارها

كما تضمن الكتاب باباً في الجهاد

والشجاعة، تعتمد على ما في القرآن الكريم من آيات.

٦- كتاب البديع في نقد الشعر:

وقد قام بتحقيقه الدكتور احمد بدوي وزميل له، اللذين ذكرا في المقدمة، ان الهدف من الكتاب قبل كل شيء هو دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته، كما هو محاولة لاتخاذ قدوة للقول الجميل، والكتاب يشبه كتاب «البديع» لابن المعتز، وكتاب «العمدة» لابن رشيق، وكتاب «الصناعتين» للمسكري، وامثالها، وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٩٦٠، وهو الكتاب الذي جمع مادته في حصن «كيفاء» واخرجه عندما عاد الى دمشق، فقسمه الى أبواب، أولها ما يتعلق بالقرآن الكريم، ثم الحديث الشريف، ثم في الآثار من نشر وشعر «الألوسي ص ١٧٥-٢١٢».

٧- تاريخ القلاع والحصون: وهو من

مؤلفاته الضائعة، وقد ذكره ابن خلكان في سيرة أسامة.

يتبع في العدد القادم ان شاء الله

الهامش (١): وقد حقق الديوان الدكتور احمد

ندوي، ونشر في مصر سنة ١٩٥٢ .